المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:09، العدد:01 (2025)، ص148-165

من استراتيجيات الفتح الإسلامي في بلاد المغرب، سياسة تأليف البربر (ركائزها، طرقها ووسائلها، أبعادها)

Strategies of conquest The politics of Berberisation (its pillars, ways and means, dimensions)

عز الدين عقيبي
المدرسة العليا للأساتذة العلمة– سطيف (الجزائر)
azza.aguibi@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2025/03/28
تاريخ القبول:
2025/05/04

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الإسلام
- ✓ الفتح
- ✓ المغرب
- ✓ البربر

الملخص:

اعتمد الفاتحون المسلمون على عدة استراتيجيات لتحقيق هدف نشر الإسلام في الآفاق، وكانت سياسة تأليف الشعوب حديثة العهد بالإسلام إحدى أهم هذه الاستراتيجيات، والتي طبقها الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم) من بعده، ثم اتبعها الفاتحون المسلمون عقبهم، ومنهم قادة الفتح الإسلامي في بلاد المغرب، الذين ارتكزوا في نشرهم الإسلام بها على سياسة تأليف البربر سكان البلاد، لجلبهم إلى صف الإسلام، ونشره بين أوساطهم، وكان لهذه السياسة ركائز ومبادئ تتبع مما أوصى به دين الإسلام وشرائعه، كما انتهجوا في سبيل ذلك وسائل وطرق جمة، مما كان له الأثر الطيب في احتكاك البربر بالفاتحين المسلمين، واقتناعهم برسالة الإسلام لدرجة أصبحوا يضعون أنفسهم شعلة في سبيل إشاعة أنواره وهدايته، ومن ثم فهذه الدراسة تحاول تسليط الضوء على جذور هذه السياسة ومبادئها، ووسائلها وطرقها، وأخيراً أبعادها في البلاد والعباد، والتي طبقها الفاتحون المسلمون مع البربر تأليفاً لهم.

Article info

Received:
28/03/2025
Accepted:
04/05/2025

Key words:
- ✓ Islam
- ✓ Conquest
- ✓ Maghreb
- ✓ Berbers

Abstract:

The Muslim conquerors relied on several strategies to achieve the goal of spreading Islam in the horizons, and the policy of uniting the peoples who had recently converted to Islam was one of the most important of these strategies, which was implemented by the Prophet (PBUH) and the Rightly-Guided Caliphs after him, and then followed by the Muslim conquerors after them, including the leaders of the Islamic conquest in the Maghreb, who based their spread of Islam on the policy of uniting the Berbers, the inhabitants of the country, to bring them to the side of Islam and spread it among them. This policy had pillars and principles stemming from what the religion of Islam and its laws recommended, and they adopted many means and methods for this purpose, which had a good effect on the Berbers' interaction with the Muslim conquerors, and their conviction of the message of Islam to the point that they began to place themselves as a torch in order to spread its lights and guidance. Therefore, this study attempts to shed light on the roots of this policy and its principles, its means and methods, and finally its dimensions in the countries and people, which the Muslim conquerors implemented with the Berbers to unite them.

من استراتيجيات الفتح الإسلامي في بلاد المغرب، سياسة تأليف البربر (ركائزها، طرقها ووسائلها، أبعادها)

مقدمة

عند الوهلة الأولى يبدو أن موضوع الفتح في بلاد المغرب الإسلامي قد أشبع بحثاً –إن صح التعبير– ولم يعد فيه مجالاً لذلك، غير أن هذا الموضوع الثري نؤكد على أنه لا زال يحتاج إلى كثير من البحث والدرس، ولعل جانب استراتيجيات الفتح في بلاد المغرب خير دليل على ذلك، حيث ركزت أغلب البحوث على جانب الإستراتيجية العسكرية أو العمل الدعوي المعتمدة من قبل قادة الفتح في البلاد، ولم تتجاوزه إلى النظر في كثير من حيثياته الأخرى، ومنها سياسة تأليف الشعوب حديثة العهد بالإسلام، والمطبقة مع البربر أهل البلاد، حيث لا نجد حوله سوى إشارات قليلة نجدها هنا وهناك في ثنايا البحوث، بالرغم من أن هذه الإستراتيجية كان لها أثر كبير في ترسيخ الإسلام بين معتنقيه الجدد من جهة، ومن جهة أخرى فإنها كانت بمثابة المحرك لصيرورة المد الإسلامي في البلاد وفي الآفاق، ومن ثم فقد كانت للإستراتيجية المذكورة أبعاد عميقة الأثر في البلاد والعباد، ومن هنا تأتي أهمية الموضوع، لذلك وجب البحث في أسباب اعتماد الفاتحين لهذه السياسة، وطرقها ووسائلها، وآثارها على البلاد والعباد، وتبعاً لما تقدم ذكره أمكن التساؤل:

ماهي ركائز سياسة تأليف البربر التي اعتمدها المسلمون الفاتحون في بلاد المغرب؟ ووسائلها؟ وأبعادها؟

وللإجابة على هذا التساؤل وجب تتبع أعمال قادة الفتح في بلاد المغرب، حتى نخلص منها ما كان يدخل ضمن هذه السياسة، لنعرف من خلالها ركائز هذه الإستراتيجية، ووسائلها وطرقها، وكيف نجحت في إدماج البربر ضمن المجهود الحربي والدعوي في الفتح ببلاد المغرب وغيرها من الآفاق.

إن الخوض في حيثيات هذا الموضوع لا شك أنه يزيح الستار عن واحدة من أهم الاستراتيجيات، التي اعتمدت من قبل الفاتحين لأجل نشر الإسلام ومبادئه السمحاء بين معتنقيه الجدد من البربر، وأثرها في ترسيخه بالبلاد، وفي صيرورة الفتح ببلاد المغرب والأندلس من بعدها، وحتى الرد على الآراء المغرضة التي ما ينفك المستشرقون ينفثونها هنا وهناك في ثنايا بحوثهم لغرض تشويه دين الإسلام وصورة الفاتحين.

1.جذور سياسة تأليف الشعوب حديثة العهد بالإسلام

إن واضع أسس هذه السياسة الحكيمة هو رسول الله ﷺ، ونجد لذلك شواهد كثيرة في أقواله وأفعاله، ومما جاء في المصادر قوله ﷺ: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ ، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)** (ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، تخريج وتصحيح محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، مصر،1390هـ/ 1970م، ج6، كتاب المناقب، ص 527)، تأكيداً منه أن المسلمين سواء متساوون أمام الله مهما كانت أصولهم العرقية، وأن معيار التمييز بين الناس عند الله هو التقوى

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ومدى تطبيق المسلم لمبادئ وشرائع الإسلام.

كما نجد لذلك صدى في أفعاله ﷺ، حين كان يؤلف قلوب زعماء ورؤساء القبائل والملوك من كل الأعراق، حتى يكسبهم إلى جانب الإسلام، ومما يروى عنه ﷺ أنه كان يؤلف زعماء العرب أنفسهم، مثلما أخبر به المالكي في ذلك الحوار الذي دار بين أبي المهاجر دينار ناصحاً فيه عقبة بن نافع الفهري، بضرورة إتباع طريقة الرسول ﷺلأجل كسب "**كسيلة بن لمزم**" زعيم قبيلة أوربة البربرية، قائلاً له: (أصلح الله الأمير، **ما هذا الذي صنعت؟** كان رسول ﷺ يصطنع جبابرة العرب، كالأقرع بن حابس التميمي وعُيينة بن حصن) (المالكي، 1994، ص41)، (المراكشي، 1983، ص29)، كما اعتبر "**سلمان الفارسي**" من قريش، بل أكثر من ذلك، إذ عده من أخص أهل البيت، فقال عليه السلام :(سلمان منا أهل البيت)، وذلك تأليفاً لهذا الرجل الفذ الذي كان له فضل كبير في غزوة الخندق، وإبعاده خطر الأحزاب المجتمعة ضد المسلمين (ابن هشام، 1990، ص175)، (ابن الأثير، 1987، ص70).

ثم اتبعها الخلفاء الراشدون والفاتحون من بعده في الآفاق مع الشعوب المختلفة التي فتحت أراضيها، وهو ما أكده موريس لومبار بقوله: "**إلى جانب هذا العنصر العربي (الأصلي)، فتح جيش الإسلام صفوفه للمجندين من أبناء البلاد المفتوحة، وهذه العناصر الأصلية ستوسع نطاق حركة الفتح الأصلية، وكذلك اتجه الإيرانيون إلى فتح آسيا الوسطى، بينما اتجهت العناصر السورية المصرية إلى فتح إفريقية الشمالية، ليقوم البربر بدورهم (في مرحلة تالية) بفتح الأندلس وجزيرة صقلية**" (لومبار، 1990، ص10).

2. سياسة تأليف البربر في أعمال قادة الفتح الإسلامي ببلاد المغرب

1.2. في أعمال عمرو بن العاص

من السياسات الحكيمة التي اعتمدها الفاتحون، وكان لها بالغ الأثر في جلب سكان بلاد المغرب إلى جانب الإسلام، أن النشاط العسكري للفاتحين في المنطقة كان موجه بالدرجة الأولى إلى النصارى البيزنطيين لا إلى أهل البلاد، يدل على ذلك أن إصرار عمرو بن العاص (ابن عبد الحكم، دت، ص76)، في مواصلة الفتح غرباً بعد فتح مصر والإسكندرية، أمر كانت تدعو إليه ضرورة تأمين فتح مصر من خطر النصارى البيزنطيين، لاسيما وقد ثبتت الاتصالات (ابن عبد الحكم، دت، 229/1) بين حاكم الإسكندرية وبرقة (الحموي 1977، 389/388) (البكري، 2003، ص176)، (الزاوي، 2004، ص36)، وتعاونهما لأجل صد جيش المسلمين، إلى جانب رغبة عمرو بن العاص في مواصلة الفتح ونشر الإسلام، وليس لأجل كسب المغانم والأسلاب مثلما يردد المستشرقون منهم: كودل، وديل، وفورنل (الزاوي، 2004، ص85)، ومنهم الفرنسيون مثل: جورج مارسي وهنري تيراس (بن عميرة، 2014، 15/10)، كما أن إقليم برقة في ذلك الوقت كان تابعاً لمصر منذ إصلاحات الإمبراطور البيزنطي موريس mourise (586 – 602م) (حسين، دت، 53/50) (سالم، دت، ص50)، فلم يجد عمرو بن العاص بداً من مواصلة الفتح غرباً بعد فتح مصر دون استئذان

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كما أرسى عمرو بن العاص أسس إستراتيجية جديدة في كسب سكان البلاد، كانت بمثابة نبراس لمن أتى بعده من الفاتحين، تمثلت في الحرص على كسب ولاء القبائل المغربية أو ضمان حيادها على الأقل، لإحكام السيطرة على السواحل التي كانت مجالاً لسيطرة البيزنطيين حينها(عبد الحميد، 1993، 143/142)، (لقبال 1984، ص19)، لذلك كان عمرو بن العاص يبعث بجرائد الخيل إلى أطراف بلاد المغرب الواقعة في الشرق قبل مداهمتها بجيش جرار لفتحها نهائياً، وكان هدفه من ذلك كما هو واضح هو تحسس موقف أهل البلاد من الفتح، خاصة وأن أخباره قد وصلت إلى مسامعهم بعد فتح مصر، وهو ما حدث فعلاً مع أهل برقة، حين أرسل إليهم كتيبة عسكرية كان على رأسها عقبة بن نافع الفهري(المراكشي، 1983، ص19)، (المالكي 1994، 98/97)، (الخطاب، 1984، ص90) سنة 22هـ/ 642م، فأتاه بأخبار مشجعة عن أهلها من بربر لواتة (ابن خلدون، 2000، 118)، (ابن عبد الحكم، دت، ص229)، فقدم عمرو بنفسه وافتتحها صلحاً على أساس قبول أهل اللواتيين مبدأ دفع الجزية (وفيما يخص شرط بيع الأولاد في عقد الصلح (ابن عبد الحكم، دت، ص229)، (البلاذري، 1987، ص314) (حسين، دت، ص56) للمسلمين في مصر (هنا يؤكد حسين مؤنس رواية عن الشاطبي بأن أهل برقة قد اتصلوا بعمرو بن العاص قبل فتح مدينتهم (حسين دت، ص55).

نفس المعاملة لقيها أهل البلاد في المناطق الأخرى من قبل الفاتحين، ففي نفس الوقت الذي فتح فيه عمرو منطقة برقة صلحاً، أرسل قريبه عقبة إلى مواطن بربر منطقة زويلة (البكري، 2003، ص183-182)، فأحرز نجاحاً كبيراً حين قبل سكانها بمبدأ الجزية يدفعونها للمسلمين (ابن عبد الحكم دت، 230/229)، ثم تقدم عمرو نحو مواطن بربر هوارة ونفوسة وزواغة (ابن خلدون، 2000، ص139) في سرت (صفي الدين، 1954، ص704)، وطرابلس (البكري، 2003، ص882)، وصبراتة (البكري، 2003، ص391-392)، فأحرز انتصارات في نفس الوقت الذي أحرز فيه بسر بن أبي أرطأة (المالكي 1994، ص85) انتصارات هو الآخر في ودان (البكري، 2003، ص184)، وغيرها من مدن الداخل، وبذلك يكون عمرو بن العاص قد أمن جنوب طرابلس كما أمن جنوب برقة حين فتح فزان وزويلة عن طريق عقبة بن نافع الفهري (ابن عبد الحكم، دت، ص230).

ما يلاحظ على أعمال قادة الفتح في خلال عملياتهم العسكرية بالمناطق المذكورة، أنهم لم يتعرضوا لأهالي البلاد بسوء، ومن المؤكد أن ذلك سهل عليهم مهمة الفتح والاقتصاد في الوقت والجهد معاً، فالمصادر تذكر أن عمرو في خلال فتوحاته على الطريق الساحلي كان يحرص كل الحرص على مسالمة ساكنة المدن المفتوحة، فكثيراً ما ذكرت أنه أمن أهلها ولم يتعرض لهم بسوء، وكان يقبل منهم دخولهم إلى منازلهم وعدم التعرض للمسلمين (الزاوي، 2004، ص35).

هكذا تمهدت الأمور للفاتحين في المناطق المذكورة من خلال اعتماد المسلمين لهذه السياسة الحكيمة، فأتت بثمارها وذلك إثر دخول كثير من الأهالي في الإسلام، اقتناعاً منهم بصدق رسالته في هذه الفترة المبكرة

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

من زمن الفتح، منهم بربر قبائل لواتة ونفوسة وزواغة وهوارة وغيرهم، ونستنتج ذلك من نص التقرير الذي رفعه الوالي على مصر عمرو بن العاص ﷺ إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، حيث ذكر فيه أنه قد:"**ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب، فبلغ زويلة، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم، قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم**" (البلاذري 1987، ص315)، حتى أن المعاهدين من أهل برقة وضواحيها ظلوا على وفائهم للمسلمين، وكانوا يرسلون بمقدار الجزية إلى مصر دون الحاجة إلى جابي خراج، ويضيف البلاذري أنه لم تدخلها فتنة قط وفق تعبيره(ابن عبد الحكم، دت، ص230)، (البلاذري، 1987، 315/314)، (وعن السبب الذي حمل أهل برقة من غير المسلمين على عدم الانتفاض على المسلمين، والوفاق معهم ضد البيزنطيين أنظر:(حسين دت، 51/50).

إن نص التقرير الذي رفعه عمرو بن العاص ﷺإلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ على جانب كبير من الأهمية، ذلك أنه يتيح لنا معرفة طبيعة معاملة الفاتحين لأهالي المناطق المفتوحة، حيث يظهر جلياً حرصهم على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على سكان برقة وضواحيها، إذ أصبح المسلمون البربر متساوون في الحقوق مع إخوانهم الفاتحين، فتم فرض على من أسلم منهم الزكاة، بحيث تؤخذ من الأغنياء فترد إلى الفقراء، وفرض على أراضيهم ضريبة العشر، أما من ظلوا على دينهم فقد فرض عليهم الجزية في مقابل حمايتهم وتمتعهم بالحقوق في كنف الحكم الإسلامي.

هذا وبالرغم من رجوع عمرو بن العاص ﷺ إلى مصر، فإنه كان يحرص كل الحرص على بقاء إقليم برقة خالصاً للمسلمين، يظهر ذلك من خلال إبقائه عقبة في برقة وضواحيها على رأس حامية عسكرية، يدعوا أهلها للإسلام، منهم قبائل لواتة، نفوسة، نفزاوة، هوارة وزواغة، فدخل كثير منهم في الإسلام(سالم دت، ص29)، وبرهن عقبة على مقدرة وكفاءة بما أداه للإسلام والمسلمين الجدد، وكان من أهم نتائج إبقاء عمرو بن العاص ﷺ لعقبة بن نافع مرشداً وداعياً بين بربر لواتة، أن أصبحت مدينة برقة وضواحيها مقراً ثابتاً ومعسكراً دائماً تستقر فيه وتتقاطر إليه جيوش المسلمين الفاتحين منذ سنة 27هـ / 647 م (حسين، دت، ص77) (يرجح حسين مؤنس أن طرابلس ونواحيها على خلاف برقة، أنها ارتدت عن طاعة العرب عقب انصرافهم عنها،(حسين، دت، ص83-84) (لقبال، 1984، ص20)، وكان من ثمار ذلك أيضاً أن أصبح المسلمون الجدد من أهل برقة ونواحيها، كبربر لواتة الذين رحبوا بالمسلمين منذ حلولهم بإفريقية، يشاركون في صفوف جيش المسلمين لفتح باقي نواحي البلاد،(عبد الحميد، 1993، ص132)، فقد انظموا مع عقبة بن نافع الفهري في صفوف جيش المسلمين بقيادة "عبد الله بن سعد بن أبي سرح"، حين قدم إلى إفريقية للقضاء

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

على مقاومة الروم بزعامة الملك جرجير(ابن عبد الحكم، دت، ص246)، المتمركز بمدينة سبيطلة (الحموي، 1977، ص187)، التي اتخذها الأخير عاصمة لمنطقة افريقية(ابن الأثير، 1987، 483)،(المراكشي، 1983، ص9)، (حسين، دت، ص84).

2.2. في أعمال عبد الله بن أبي سرح

أما عبد الله سعد بن أبي السرح (للتعرف على سيرته (المراكشي، 1983، ص9)، (الدباغ، 1968، ص137))، وعلى غرار عمرو بن العاص، فإنه اعتمد هو الآخر على سياسة إرساله جرائد الخيل إلى النواحي لتحسس موقف أهلها من الفتح، وعدم التعرض للآمنين منهم، كما حرص على دعوتهم إلى الإسلام باللين والحسنى، بل أكثر من ذلك فقد عمل على إشراك المسلمين الجدد من البربر في المجهود الحربي لفتح إفريقية.

ففيما يخص عدم تعرضه لأهل البلاد بالسوء وتأمينهم على أرواحهم وممتلكاتهم، فقد ذكرت المصادر أنه كان يكتفي منهم حيادهم في صراع المسلمين مع البيزنطيين، مثلما فعل حينما دنا الجيش الذي كان يقوده من طرابلس، حيث تقدمته إليها إحدى الطلائع التي كان يرسلها إلى النواحي، فوجد أفرادها مراكب للروم راسية على الساحل، فحملوا عليها وغنموا ما فيها وأسروا مائة من أصحابها، غير أنهم لم يتعرضوا للأهالي بشيء، وذلك لأنهم تحصنوا داخل مدينتهم (المالكي، 1994، ص17)، ونفس الشيء فعله مع أهل مدينة قابس (البكري، 2003، 190/189) بعدها، حيث كان الفاتحون يعلمون أن سكان هذه المناطق المذكورة كانوا يكتفون من المسلمين تركهم في أمان (عبد الحميد، 1993، ص151).

كما تتضح سياسة جلب السكان إلى صف الإسلام من قبل هذا القائد، في حرصه على دعوة زعماء القبائل البربرية إلى دين الإسلام باللين والحسنى، وإبقائهم على رأس قبائلهم، ولا شك أن قبائلهم قد تبنت الإسلام ديناً، فالشعوب على دين ملوكها كما يقال، فبعد انجلاء معركة سبيطلة سنة 27هـ/ 647م (وعن هذه المعركة أنظر: (المالكي، 1994، ص14 فما بعدها) (حسين، دت، ص83 فما بعدها)عن هزيمة الروم والأفارقة وأحلافهم من البربر من فرع البرانس، الذين كانوا لا يزالون إلى ذلك الوقت تجمعهم علاقات الحلف مع البيزنطيين، عكس فرع البتر الذين كان قد انظم كثير منهم إلى جانب المسلمين، فقد كان من أهم نتائج هذه المعركة الخالدة فتح عبد الله بن أبي سرح لمدينة سبيطلة مقر الحكم في إفريقية، كما دخلت أعداد كبيرة من زعماء قبائل البربر في الإسلام منهم وأشهرهم: وزمان بن صقلاب جد بني خزر، وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة، ورفعوه إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ فأسلم على يديه وأطلقه وعقد له على قومه (وقد أورد ابن خلدون رواية ثانية مفادها أن هذا الزعيم قد أتى وافداً عن طوع منه إلى عبد الله بن أبي سرح، (ابن خلدون 2000، 141)، ولا شك أن قبيلته زناتة وربما أحلافها من باقي القبائل البربرية قد دخلت الإسلام طائعة راضية (لقبال، 1984، ص20). كما حرص هذا القائد على جلب سكان البلاد إلى صف الإسلام أيضاً، من خلال إشراك المسلمين من البربر في عمليات الفتح، فقد سبق الذكر، أن أهل برقة قد انضموا مع عقبة بن

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

نافع الفهري في صفوف جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، حين قدم إلى إفريقية للقضاء على مقاومة الروم بزعامة الملك جرجير (ابن عبد الحكم، دت، ص246).

3.2. في أعمال معاوية بن حديج السكوني

تتضح سياسة معاوية بن حديج (الدباغ، 1968، 144/140)، (المالكي، 1994، 92/28)، (ابن عبد الحكم، دت، ص56) في تأليف البربر من خلال عدم التعرض للآمنين منهم، واستغلال سوء العلاقة بينهم وبين البيزنطيين لجلبهم إلى صف المسلمين، كما أنه كان صاحب فضل في تخطيط إستراتيجية جديدة لا عهد لمن سبقه بها من الفاتحين.

ففيما يتعلق بكسب سكان المنطقة إلى جانب الإسلام، يتضح ذلك من خلال استغلاله لسوء العلاقة بين الأهالي والبيزنطيين، إثر إصرار مندوب الإمبراطور البيزنطي (قنسطانز الثاني) (641- 668م)، المسمى أوليمبة (أوليمبوس)، على مطالبة السكان بإعطاء بيزنطة مثلما أعطوه للمسلمين إثر صلحهم مع عبد الله بن سرح، مما أدى إلى القائم بأمر إفريقية (أجناديوس)، يذكره مرسية باسم (جناحة) وابن عذاري باسم (حباحبة) تحريفاً لكلمة أجناديوس إلى طرد مندوب الإمبراطور بمساعدة ورضا السكان، ثم الالتجاء إلى معاوية في دمشق لينجده وحزبه ضد خصم جديد جمع حوله نفر من الأهالي، يسميه ابن عذاري (الأطريون: الأرطبون (المراكشي، 1983، ص17)، (حسين، دت، ص17)، (لقبال، 1984، 26).

كما أنه وفي أثناء مسيره لفتح المدن في إفريقية خلال غزواته الثلاث على التوالي سنة 34هـ/ 654م، ثم 45/ 665م، وسنة 50هـ/ 670م، لم يكن يتعرض لسكانها الآمنين بالسوء، فالمصادر تذكر أنه مر بمدينة برقة التي ظلت مسالمة للمسلمين، ونفس الموقف كان مع أهل مدينة سرت، حيث يبدو أنهم قد تأثروا بموقف أهل برقة نظراً لقربهم منهم، فهي منذ أن فتحها عمرو بن العاص لم تبدِ نشاطاً عدائياً، لا ضد ابن أبي سرح في غزوتيه، ولا ضد ابن حديج، وأصبحت مسالمة كما سالمت برقة، ومر بمدينة طرابلس فلم يبدي أهلها أية مقاومة للمسلمين هم أيضاً، ويظهر أن قتل جرجير من قبل، وكذا نشوب الفتنة بين أهالي البلاد وهرقل بسبب طردهم مندوبه (أوليمبة)، لذا تغافلوا عن طرابلس ولم يحاول البيزنطيون الرجوع إليها، وهذا ما شجع أهل طرابلس على الاحتفاظ بعهدهم مع الفاتحين، فانتهز ابن حديج مسالمتهم وعين عليهم من قبله "**رويفع بن ثابت**"، وبذلك أمن انتقاضهم، كما أمن طريق الرجعة فيما لو اضطر إلى الرجوع، (الزاوي، 2004، 82/79) .

أما أهم عمل له تمثل في كونه كان صاحب السبق في سن إستراتيجية جديدة، لم يسبقه إليها أحد من الفاتحين من قبل، قامت على أساس الاستناد إلى قاعدة ثابتة وسط مضارب البربر، يستقر فيها الجند صيفاً وشتاء بعتادهم ومؤنهم، ومنها ينطلقون لإخضاع النواحي (ابن عبد الحكم، دت، ص260)، وكسب ولاء السكان، ولما لهذه الإستراتيجية من أهمية في إتمام عملية الفتح الحقيقي، وفي التمهيد لإرساء قاعدة القيروان الإسلامية (لقبال، 1984، ص27)، حيث عرف عنه أنه كان أول من اتخذ قاعدة عسكرية ثابتة ومساكن لقواته في إقليم قمونية، بمحاذاة سفح جبل القرن أو كما عرف أيضاً بجبل ممطور، الذي يقع في غربي قمونية،

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وسماها "**قيروان**"، وهي مكان القيروان فيما بعد، وحفر بجواره آباراً يشرب منها الجند خيولهم وسميت باسم آبار حديج (ابن عبد الحكم، دت، 261/260)، (المالكي، 1994، 30/29).

بفعل هذه السياسة الحكيمة من قبله حصلت الألفة بين الحيين من العرب الفاتحين والبربر، ولأول مرة نسمع فيها أن جماعة من المسلمين استقروا في إفريقية، وهي بادرة تدل على اضمحلال شأن الروم، وهي كذلك أول خطوة في استقرار الإسلام في إفريقية، ومزاحمته للمسيحية في دورها ومناطق نفوذها(الزاوي 2004، 81).

هذا وفيما عدا ابن الأثير من مصادر الفتح فإن النصوص لم تحدثنا عن طبيعة علاقة ابن حديج مع السكان الأصليين، أما ابن الأثير فقد أضفى على نشاطه أهمية بالغة، وجعل من نتائجه إخلاد الناس في بلاد المغرب إلى الراحة والهدوء، وانقيادهم وطواعيتهم إلى السلطة حتى عصر الخليفة هشام (105 – 125هـ/ 724– 743م)، الذي ظهرت في عصره ببلاد المغرب الحركات الخارجية (عبد الرزاق، 1985، ص151–175)، بتأثير سياسة ولاة بني أمية، وهجرات أهل هذه النحلة إلى المغرب (ابن الأثير، 1987، 486/485)، ويعلق عليه الباحث موسى لقبال بأنه محق في ذلك، ذلك أن حملة حديج قد حققت انتصاراً على الروم في إفريقية، واستولت على أهم حصونها، وهو حصن جلولاء، (وعن هذا الحصن أنظر:(صفي الدين، 1954، ص343)، ونشرت نفوذ المسلمين حتى بنزرت وجربة (تقع جزيرة جربة أسفل خليج قابس في الجنوب الشرقي للبلاد التونسية، وبالتحديد بين خطي عرض 37.37° و 37.68°، وخطي طول 9.30° و9.70° شمال خط الاستواء، وتبلغ مساحة جزيرة جربة 514 كم2، وهي من أهم وأكبر الجزر التونسية، حيث تمتد سواحلها على مسافة 125كلم (النجار، 2022، ص112–113)، وصقلية (صفي الدين، 1954، ص847)، وأهم من ذلك كله عرفت الفاتحين بأرجاء إفريقية معرفة تكاد تكون تامة، ووضعت نواة لقاعدة القيروان، حين فضل تشييد معسكر عند سفح جبل القرن في منطقة قمونية بفحص إفريقية (المراكشي 1983، 17/16)، (لقبال 1984، 28/27)، وهكذا يمكن القول إن إستراتيجية ابن حديج الجديدة تعد إرهاصاً حقيقياً لما تم فعلاً في عصر خلفه عقبة بن نافع (لقبال 1984، ص28).

4.2. في أعمال عقبة بن نافع الفهري

لقد سبق ذكر كثير من أعمال عقبة بن نافع الفهري (الدباغ 1968، 167/164)، التي تتصل بسياسة جلب سكان المنطقة إلى الإسلام، حيث كان أول الوافدين على رأس حامية عسكرية إلى برقة، ومهد للصلح الذي تم إبرامه مع أهلها بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، كما كانت له جولات في مناطق جنوب برقة حين فتح فزان وزويلة، حتى أصبحت هذه المناطق سلم للمسلمين كلها، مثلما نص على ذلك التقرير الذي أرسله عمرو بن العاص (رضي الله عنه) إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه السالف للذكر، كما أن عقبة قد مكث في برقة وضواحيها على رأس حامية عسكرية، يدعوا أهلها للإسلام، منهم قبائل لواتة، نفوسة، نفزاوة، هوارة وزواغة، فدخل كثير منهم في الإسلام، بل أصبحوا يضعون أنفسهم شعلة إلى جانب إخوانهم من المسلمين في

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

سبيل إشاعة نور الإسلام في البلاد، مثلما فعل بربر برقة المسلمين تحت قيادة عقبة بن نافع، حينما انضموا إلى صفوف جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ضد الروم البيزنطيين بقيادة ملكهم جرجير.

كما تذكر المصادر أن عقبة بن نافع وبعد انتهائه من بناء مدينة القيروان، أمن المسلمين البربر الجدد وخصهم بالإقامة في القاعدة الناشئة، يؤيد ذلك كما تفضل به الباحث موسى لقبال والسيد عبد العزيز سالم، أنه وبعد بناء هذه المدينة فإن ذلك حمل كثيراً من البربر على اعتناق الإسلام، راضين مغتبطين، والانضمام إلى السلطة الجديدة، والإقامة حول القاعدة الناشئة، بل ويزيد السيد عبد العزيز سالم أن ذلك كان أول خطوة في نقلة البربر واستعرابهم، (سالم، دت، 36)(حسين، دت، ص146)(لقبال، 1984، ص36)، وهو ما يؤيده المؤرخ ابن الأثير عند حديثه عن النتائج الطيبة من بناء مدينة القيروان حيث قال: "**ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين، وقوي جنان من هنالك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام، فثبت الإسلام فيها**" (ابن الأثير 1987، 320/321).

أما أثناء حملته الكبرى، والتي دامت ما بين 62 إلى 64هـ / 682 – 684م، وشملت أراضي بلاد المغرب من شرقها إلى غربها، يخبرنا ابن الأثير أن معاوية بن أبي سفيان استعمل عقبة بن نافع الفهري، الذي ظل مرابطاً ببرقة وزويلة مذ فتحها على عهد عمرو بن العاص ﷺ، وأمده بعشرة آلاف فارس، فدخل افريقية وانضاف إليه من أسلم من البربر، فكثر جمعه (ابن الأثير 1987، ص320)، كما رافقه في حملته هذه جموع من بربر أوربة عليها كسيلة (سالم دت، ص37).

على أن جهوده العسكرية خلال حملته الكبرى كانت موجهة بالأساس نحو الروم وحلفائهم من البربر النصارى، لا إلى أهل البلاد، حيث كان يهدف إلى القضاء على مراكز الروم في البلاد، وهو ما يمكن حمله على كلام المالكي في خلال حديثه عن غزو عقبة بن نافع الفهري لإفريقية حيث قال: "**وذكر أن معاوية وجه عقبة في جيش عظيم إلى إفريقية غازياً، فدخلها وافتتحها، ووضع السيف على من بها من النصارى**" (المالكي، 1994، ص10)، فليس من محض الصدفة أن يقصد عقبة تجمعات الروم الكبرى خلال حملته الكبرى، ويتضح ذلك من خلال تتبع مسار الطريق الذي سلكه الجيش الإسلامي في بلاد المغرب تحت قيادته، أين قصد تجمعات الروم وحلفائهم من البربر النصارى، حيث تجمعات الروم في قرطاجنة (البكري، 2003، ص216 فما بعدها) ثم في مدينة المنستير (المراكشي، 1983، ص24)، (البكري 2003، 210/209)، التي كانت هي الأخرى من أعظم مدائن الروم مثلما أوضح المالكي، (المالكي 1994، 24)، أما في المغرب الأوسط فقد سار على طريق الهضبة إلى غاية مدينة باغاية (البكري، 2003، ص227) (الحميري، 1984، ص76–77)، بجبل أوراس، أين واجه حاميتها الرومية، ثم واجه الروم وحلفائهم من بعض البربر في منطقة أدنة عاصمة إقليم الزاب عند واديها سهر في المسيلة (البكري، 2003، 240/239) (صفي الدين، 1954، 1273)، وكان من نتائجها ذهاب عز الروم على الزاب إلى الأبد مثلما علق أصحاب المصادر، ثم رحل منها إلى تاهرت (البكري 2003، ص216 فما بعدها) (الحميري 1984، 126) (البكري 2003، ص248–250)

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وتغلب على حاميتها الرومية بالرغم من استنجادهم بالبربر الذين اصطبغوا بالصبغة الرومانية(ابن الأثير، 1987، ص49)، (المراكشي، 1983، 25/24)، (الدباغ، 1968، ص49)، (عبد الحميد، 1993، 197/196)، ثم انتقل منها إلى مدينة تلمسان (الحميري، 1984، ص135-138)،(البكري، 2003، ص259 فما بعدها)، وفض جمعهم هناك (الدباغ، 1968، 49/48).

كما أنه في خلال هذه الحملة، كان يحرص كل الحرص على جلب البربر إلى جانب الإسلام، من خلال دعوتهم لاعتناق الإسلام، وكان يترك بينهم من أصحابه من يعلمهم شؤون دينهم، ففي خلال مسيره بمنطقة السوس الأقصى ضمن للإسلام قبائل بربرية مثل: هسكورة وجزولة، ورجراجة، وصودة (المراكشي 1983، 26)، وعند وادي تنسفت بين موقادور ومراكش، ترك بين البربر لتعليمهم أصول الإسلام شاكراً من أصحابه، عرف به هذا المكان حتى اليوم باسم رباط شاكر (المراكشي، 1983، ص27)، (عبد الحميد، 1993، ص202)، كما ساهم في بناء مساجد عديدة في خلال حملته الكبرى منها: مسجد بمدينة إيجلي في السوس الأقصى، ومسجد بدرعة (المراكشي، 1983، ص27).

بعدها وفي أثناء عودته إلى القيروان تذكر المصادر أن المصامدة فرضوا حصاراً على عقبة في منطقتهم بالسوس، فخفت قبائل زناتة لنجدته وفك الحصار عنه (ابن خلدون، 2000، ص142)، وقيل أن المصامدة أسلموا طوعاً على يديه (المراكشي، 1983، ص42)، وبعد أن فشلت حملة عقبة بن نافع بكارثة تهودة (البكري، 2003، 2/ 216 فما بعدها) (الحميري، 1984، ص142-143)، وأسر جماعة من أصحابه، فيهم محمد بن أوس الأنصاري، ويزيد بن خلف العبسي، تدخل صاحب قفصة المسلم- الذي يسميه السلاوي ابن مصاد- لدى كسيلة (هنا لابد من توضيح موقف كسيلة من الإسلام، فبعضهم يذكر أنه ارتد عن دينه الإسلام، لكن نجد في المصادر ما يخالف ذلك، فابن عذاري يذكر أنه بعد استقراره في القيروان ظل والياً على بلاد المغرب وأهلها بمن فيهم المسلمين، أما الدباغ يفيد أنه جاء لتخليص صديقه أبي المهاجر،(المراكشي 1983، 31)، (الدباغ 1968، 52)، (المالكي، 1994، ص40) (عبد الحميد، 1993، ص169)، ولعل عدم تعرضه للمسلمين في القيروان، وكذا قبوله فدية صاحب قفصة المسلم في أسرى معركة تهودة يؤيد صحة هذا الرأي، (الدباغ، 1968، ص55)، حتى قبل الفدية فيهم، ثم أرسلهم إلى القيروان (السلاوي، 1997، ص140)، (المراكشي، 1983، ص29)، (عبد الحميد، 1993، ص205).

إن هذا التدخل من جانب صاحب قفصة لفائدة المسلمين، له مغزى يساوي في أهميته إسراع قبيلة زناتة من قبل إلى نجدة عقبة، وتخليصه من الحصار الذي ضربته عليه قبائل مصمودة في منطقة السوس، وتعاونها معه لحمل جانب كبير من هذه القبائل على الأخذ بالدين الجديد (لقبال، 1984، ص43).

لكن بالرغم من أن كارثة تهودة التي انتهت باستشهاد عقبة وأصحابه، وضاعت معها جهود أربعين عاماً قضاها المسلمون في غزو وفتح، ولكن مع ذلك لم يضع كل شيء، فقد تركوا بإفريقية عدداً كبيراً من البربر تحولوا إلى الإسلام، وكانوا سبباً في معارضة حكم كسيلة واضطراب صفوفه، واختلت أحواله، وسنرى أنهم

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

سينضمون طائعين إلى جيش المسلمين (حيث يذكر ابن عذاري أن كسيلة كان يخشى تحالف المسلمين ومنهم البربر في القيروان وغيرها من أنحاء أفريقية مع الفاتحين،(لقبال، 1984، ص32)، (سالم، دت، ص40)، وقد ذكرت المصادر أن ألفين من البربر كانوا في عداد جيش المسلمين تحت قيادة زهير بن قيس البلوي، الذي تولى أمر افريقية بعد عقبة، ضد كسيلة وأحلافه من البيزنطيين والبربر النصارى(المالكي، 1994، ص45)، (الدباغ، 1968، ص58)، وكانوا سبباً في هزيمته وأحلافه (المراكشي، 1983، ص32).

5.2. في أعمال أبو المهاجر دينار

في ولاية أبو المهاجر دينار (55 – 62هـ/ 674– 681م) (عن سيرته أنظر:(ابن عبد الحكم دت، 1/ 262)، وذكر المالكي عن حفيده إسماعيل بن عبيد الله أنه من قبيلة مخزوم القرشية، وعليه فهو من قبيلة مخزوم القرشية، أنظر: (المالكي، 1994، 1/ 115)، وللمزيد عن سيرته وأعماله(عبد المنعم 2018، 167/141)، يذكر عنه أنه حين همّ ببناء مدينة تاكيروان (مدينة بالقرب من القيروان، (المالكي، 1994، ص32)، وعفى عن رسوم مدينة القيروان التي كان قد بناها عقبة بن نافع الفهري، فإنه خص البربر المسلمين بسكنى هذه المدينة، حتى أن الباحث موسى لقبال لا يستبعد أن البربر قد أشاروا على أبي المهاجر دينار بناء تاكيروان بالقرب من منازلهم، في جبل وسلات مسكن قبيلة مزاتة البربرية (لقبال، 1984، ص36).

كذلك نجح أبو المهاجر في جذب كسيلة وقبيلة أوربة(إسلام زعيم قبيلة أوربة كسيلة وقبيلته النصرانية التي كانت في حلف مع الروم ضد المسلمين، على يدي أبي المهاجر دينار، وهي من أقوى فروع البرانس، وتوزعت بطونها بين منطقة أوراس والريف، (ابن خلدون، 2000، ص146)، (السلاوي، 1997، ص37)، إلى الإسلام، ولا يستبعد عبد العزيز سالم أن يتبع دخول قبيلة أوربة في الإسلام إسلام أحلافها ومشايعيها (سالم دت، 37)، وهو حدث له أهميته في نشر الإسلام بين البربر، وخاصة منهم بربر البرانس، فقد كانوا ألد أعداء الفتح الإسلامي إلى غاية عهد أبي المهاجر، نظراً لتأثرهم بمظاهر الحضارة الرومانية والبيزنطية، حيث كانوا يدينون بدين النصرانية، لذلك كانوا حلفاء لهم ضد المسلمين.

إن إسلام كسيلة زعيم أوربة وأحلافه من باقي القبائل البربرية، انعكس إيجاباً في تسهيل فتح المغرب الأوسط بعد إفريقية، حيث يذكر المالكي عن أبي المهاجر أنه: "**صالح بربر إفريقية، وفيهم كسيلة الأوربي، وأحسن إليه، وصالح عجم إفريقية، وخرج بجيوشه نحو المغرب (أي المغرب الأوسط)، وفتح كل ما مر عليه حتى انتهى إلى العيون المعروفة بـ(أبي المهاجر) نحو تلمسان**" (المالكي، 1994، ص33)، أو (بوماريا)، وتسنى له بفضل مؤازرة البربر القضاء على مراكز تجمع الروم في إفريقية والمغرب الأوسط، حيث شن على قرطاجنة هجوماً كبيراً سنة 59هـ/ 679م، ثم تركها بعد أن تخلى له الروم عن الجزء الواقع جنوبي إقليم قرطاجنة(حسين، دت، ص170–176)، و أمكنه ذلك أيضاً من فتح مدينة ميلة (بن خياط، 1967، ص215).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

مما تقدم من أعمال دينار تبدو جلياً سياسته في التقرب من البربر، وكسبهم للإسلام باللين والحسنى، وربط أواصر الحلف معهم ضد الروم الدخلاء، وهذا الاتجاه لم يتفطن له أغلب من سبق أبي المهاجر دينار غير عقبة، الذي رأينا جموع البربر تدخل في الإسلام بفضل جهوده في الدعوة بينهم، وأثناء بناء القاعدة، وبعد إنهائه انضم المسلمون البربر إلى العرب في نشاطهم الحربي ضد الروم وضد غير المسلمين من بني جلدتهم (لقبال، 1984، ص36) (عبد الحميد، 1993، 191/190).

لقد أتت هذه السياسة المنتهجة من قبله بثمارها الطيبة، لدرجة أنه أصبح يأمن جانبهم في خلال قيامه بعمليات الفتح، إذ يذكر عنه أنه ولشدة اطمئنانه من ناحية البربر، ترك تاكيروان أثناء عمله في المغرب الأوسط دون والٍ أو حامية (المالكي، 1994، ص33)، (الدباغ، 1968، ص46)، لأن السياسة التي جرى عليها في معاملة السكان كتبت فيهم روح المقاومة، وهكذا نرى أن هذا المولى هو المخطط لسياسة التحالف بين العرب وعنصر السكان الأقدمين لطرد الروم، تلك التي سيكون لها أثر إيجابي في استكمال عملية فتح المغرب والأندلس(لقبال، 1984، ص39)، حيث سياسة التقريب بين العنصرين وبين الجمعين ضد الروم سيسهر على رعايتها حسان وموسى بن نصير من بعده.

6.2. في أعمال حسان بن النعمان

المصادر تذكر أن البربر قد انضموا إلى جيش حسان بن النعمان (المراكشي، 1983، ص34)، المتوجه إلى لقاء الروم وحلفائهم من بربر البرانس، وأمر على مقدمة جيشه "**محمد بن أبي بكير**" و"**هلال بن ثروان اللواتي**" (ابن عبد الحكم، دت، ص269) وهذا التصرف منه تصرف له مغزاه، فلم يشأ أن يفرق بين العرب والبربر المسلمين، وستكون هذه السياسة رائدته عندما يتم فتح إفريقية (لقبال، 1984، ص59).

كذلك بعد تذمر البربر من صنيع ملكتهم الكاهنة "**دهيا بنت ماتية**" حين أقدمت على حرق الزروع والغابات، ضناً منها أن العرب إنما قدموا إلى بلاد المغرب للسلب والنهب، فقد استغل حسان لجوء البربر إليه في برقة، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: "**شق ذلك على البربر فاستأمنوا لحسان فاستأمنهم ووجد السبيل إلى تفريق أمرها**" (ابن خلدون، 2000، ص143)، (ابن الأثير، 1987، ص136)، (المراكشي، 1983، 28)، (المالكي، 1994، ص53)، وفي خلال زحف حسان لملاقاة الكاهنة مرة ثانية يذكر ابن الحكم أنه أخذ لابنا الكاهنة أماناً، و"**كان مع حسان جماعة من البتر، فولى عليهم حسان الأكبر من ابن الكاهنة وقربه، ومضى حسان ومن معه، فلقي الكاهنة في أصل جبل**" (ابن عبد الحكم، دت، ص271)، (المراكشي، 1983، ص28)، (المالكي، 1994، ص54).

كما تذكر المصادر أنه خلال مسيره لملاقاتها فتح مدينة قابس التي لطالما امتنعت عن الفاتحين، فتحها صلحاً، وقبل من السكان تقديمهم فروض الطاعة والولاء ونصيباً من الأموال، وعين عليهم والياً مسلماً، ثم عرج على مدينة قفصة وعلى إقليم قسطيلية وأرض نفزاوة، فافتتح جميع ذلك سلماً وتقبل الولاء منهم (ابن الأثير، 1987، 136).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

بعد هزيمة الكاهنة انضم كثير من البربر إلى جانب جيش المسلمين ضد الروم وحلفائهم من البربر النصارى يقول ابن خلدون: "**استأمن إليه البربر على الإسلام والطاعة، وعلى أن يكون منهم اثنا عشر ألفاً مجاهدين معه، فأجابوا واسلموا وحسن إسلامهم، وعقد للأكبر على قومهم من جراوة وعلى جبل أوراس**" (ابن خلدون، 2000، ص143)، وذلك لما كان قد سبقهم في الإسلام وفي الدعوة إليه ولدا الكاهنة، اللذان قالا لقومهما: "**لزمنا الطاعة له، وسبقناها إليها، وبايعناه عليها**" (ابن خلدون، 2000، ص143)، فإن حساناً قدم على كل ستة آلاف من البربر، ولداً من ابني الكاهنة، واستصحبهم معه، وأرسلهم إلى مختلف النواحي ليعملوا السيف في رقاب كل من لم يذعن من الروم أو البربر(المراكشي، 1983، ص28)، (ابن الأثير، 1987، ص136)، وهكذا فشا الإسلام في البربر مثلما وضح ابن الأثير (ابن الأثير، 1987، ص136)، ومن هذا الوقت أصبحت مهمة نشر الإسلام في المغرب ليست مقصورة على العرب فقط، إنما أصبحت تشاركهم فيها عناصر قومية أخرى (لقبال، 1984، ص67)، كما ساهم البربر في بناء دار صناعة للسفن بترشيش (تونس)، من خلال قطعهم للأخشاب من الغابات الداخلية (البكري، 2003، 213/212).

لا شك أن سياسة التسوية بين العرب والبربر، في الفيء، ومنحهم نصيب من الإقطاع الزراعي على أن يعطوا صدقاتها، واستمالة البربر وإشراكهم في تحمل مسؤولية القيادة، والعمل على نشر الإسلام بين ذويهم، تلك التي بشر بها أبو المهاجر دينار ورعاها حتى أتت ثمرها، سهر عليها حساناً منذ فصل من طرابلس إلى انتهت مدة ولايته على إفريقية (لقبال، 1984، ص67)، وهو ما عبر عنه المالكي بقوله: "**ومن ذلك صارت الخطط للبربر في افريقية، فكان يقسم الفيء بينهم، والأرض، وحسنت طاعتهم، فدانت له إفريقية ودون الدواوين**" (المالكي، 1994، ص56)، على أن أكثر الداخلين إلى الإسلام في عهد حسان كانوا هم البتر عكس البربر من فرع البرانس، وهو ما أخبرنا به ابن الحكم (المالكي، 1994، ص271).

مما تقدم تتضح أن خطة حسان في فتح إفريقية والمغرب لم تكن من محض الصدفة، أو اعتباطية، فقد كانت مرسومة بخطى ثابتة، إذ كان هذا الرجل متشبعاً بالروح الدينية، ميالاً إلى نشر الإسلام وتطبيق مبادئه الديمقراطية في البيئة الجديدة، ذلك أنه بادر إلى القضاء على مركز الكنيسة الإفريقية باحتلال قرطاجنة، وعلى قلعة الوثنية، وبعض مخلفات من الطقوس اليهودية، باقتحام كتلة أوراس، والقضاء على الكاهنة، كما إنه كان يحرص على كسب سكان البلاد من خلال اشتراطه على المستأمنين مقابل منح الأمان لهم، أن يسلموا، وينتموا إلى العرب، أو إشراكه للمسلمين الجدد في مسؤولية القيادة، والجهاد لنشر الدين، أو عنايته البالغة بمسجد عقبة حيث جدده حتى بدا في صورة بهيجة (المالكي، 1994، ص48)، (لقبال، 1984، ص131)، وحتى يكون هذا المسجد الجامع مركزاً لتجمع المسلمين العرب والبربر معاً، وليقوم بدوره في نشر وتعريف المسلمين من أهل البلاد بشرائع وأحكام دينهم.

7.2. في أعمال موسى بن نصير

موسى ابن نصير (المراكشي 1983، 40/39)، شمل نشاطه في الفتح ببلاد المغرب الأوسط قبائل

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

هوارة وزناتة وكتامة، وصنهاجة، فأرسل إلى مضارب هوارة عياشاً بن أخيل في عدد من الجيش، فأكثر السبي حتى رغبت هذه القبائل في الصلح، فمنحته على يد موسى بعد أن قدمت رهائن من وجوه قومها، واستجاب أيضاً لرغبة كتامة وعين عليها رجلاً منها وأخذ رهائن من سراتها (المراكشي، 1983، ص41).

أما في المغرب الأقصى فقد شمل نشاطه قبائل المصامدة في مضاربهم بجبل درن، حيث أرسل إليهم أحد أركان حربه وهو زرعة بن أبي مدرك، فأذعنوا إلى دعوته دون حرب ووجه رؤسائهم إلى القيروان، وأخذ عليهم الرهائن، ثم توجه بنفسه إلى السوس الأدنى خلف ولاية طنجة، وبعد أن أخضع من بقي خارجاً عن الطاعة من البتر والبرانس وأخذ عليهم الرهائن، عين عليهم والياً مسلماً (ابن عبد الحكم، دت، ص275)، (المراكشي، 1983، ص42)، نلاحظ مما سبق ذكره أن موسى وعماله كانوا يأخذون الرهائن من وجوه القبائل البربرية ومقدميها، وهذه ميزة انفرد بها موسى من بين قادة الفتح، على أن هدفه من وراء ذلك كما يبدو هو التوثق من استمرار ولاء القبيلة للفاتحين (لقبال، 1984، ص88).

كنتيجة لذلك يذكر ابن الأثير أن البربر في بلاد المغرب أدوا إليه الطاعة، وأنه ولى على طنجة واحد من البربر كعامل عليها، وهو طارق بن زياد (ابن الأثير، 1987، ص252)، (ابن عبد الحكم، دت، ص275)، وجعلهم تحت إمرته الخاصة، وذكر ابن عذاري عددهم بسبعة عشر ألفاً من العرب واثني عشر ألفاً من البربر، وترك بينهم سبعة عشر فقيهاً من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام (المراكشي، 1983، ص42)، (بدر 1982، ص81)، وإن كان الخلاف لا يزال مستمراً فيما يتعلق بأصول القائد طارق بن زياد، فالمقري يذكر أنه بربري وقال أيضاً أنه عربي من قبيلة الصدف (المقري، 1968، ص239)، ويوافقه ابن خلدون في أنه من العرب إلا أنه يجعله من قبيلة الليث العربية (ابن خلدون، 2000، ص239)، أما ابن عذاري فيرجح أنه بربري كان مولى لموسى بن نصير، ويمدنا بسلسة جذوره التي تنتهي إلى قبيلة نفزة البترية البربرية، (المراكشي 1983، ص43)، ويضيف الباحث لقبال أنه استهل حياته السياسية والياً على منطقة أنطابلس (برقة) بعد استشهاد زهير بن قيس البلوي على ساحل درنة، كما أشار إلى ذلك ابن عبد الحكم في فتوحه، ثم انظم إلى جيش موسى بن نصير (ابن عبد الحكم، دت، ص273)، (لقبال، 1984، ص93)، وإن صح أصله البربري فهذه تعتبر سابقة في تاريخ الفتح في بلاد المغرب، لأن هذه المناصب كانت قبل عهد موسى حكراً على العرب دون غيرهم (لقبال، 1984، ص107)، وتعليل ذلك ربما لتخوفهم من غيرهم في هذه الفترة المبكرة من الفتح في البلاد، كما أن تثبيت الفتح فيها واستقراره كان يتطلب منهم الأخذ بالحيطة والحذر.

إن أمر موسى للفقهاء العرب بتعليم البربر الجدد أصول الإسلام ومبادئه وتلقينهم القرآن، وتعليمهم الفقه وشؤون دينهم، فأحيا بذلك سنة عقبة الذي لم تخف عليه ميزة التعليم، والتبشير بالدين، مثلما رأينا حينما ترك بين البربر بعض أصحابه أشهرهم شاكر، وبرهن موسى بهذا العمل على أنه شديد الاهتمام بالثقافة وبنشر الإسلام بين البربر، كما برهن بإسناده القيادة إلى طارق البربري على سعة أفق وحكمة سياسية، ظهرت بعض نتائجها الطيبة في الجموع الغفيرة من البربر الذين توافدوا على طارق وهو في موضع رباطه، يرغبون الانضمام

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

إلى المرابطين واحتضان مبادئ الإسلام والاغتراف من مناهل الثقافة الإسلامية (المراكشي 1983، ص42)، (ابن خلدون 2000، ص144)، (لقبال 1984، ص89)، كما يظهر حرصه على تثبيت الإسلام في أوساط البربر من خلال تشييده بعض المساجد منها جامعاً في مدينة تلمسان (لقبال، 1984، ص131).

على أن هذا التجمع بين العرب والبربر الجديد في طنجة، قد أسهم في ميلاد تجمع إسلامي في المغرب أظهر عناصره البربر المسلمون، يسوده الوئام، وتقوده أهداف مشتركة، وإن اشتراك مسلمي البربر بأعداد هائلة مع العرب في المجهود الحربي في شبه جزيرة (أيبيريا) لدليل على وحدة الهدف والمصير، وعلى مدى التمازج بين الحيين وعلى استقرار الإسلام نهائياً في بيئة المغرب، وتمكنه من نفوس السكان لدرجة أصبحوا يضعون أنفسهم وقوداً لنشر شعلته في الآفاق البعيدة، وتأكيداً على أهمية جهود موسى في نشر الإسلام بين البربر وتثبيته، وهو ما عبر عنه بن خلدون: "**أن البربر ارتدوا عن الإسلام، اثني عشر مرة، من طرابلس إلى طنجة، ولم يستقر الإسلام بينهم حتى أجاز موسى معه كثير من رجالات البربر، وأمرهم برسم الجهاد، فاستقروا هناك، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة**" (ابن خلدون، 2000، ص144) (وليس المقصود من الردة هنا معناها الديني، بل الثورة السياسية والاشتراك في الفتن وإثارة الاضطراب ضد القادة والولاة، ولعل ذلك ما يؤيده كلام الدباغ في كتابه معالم الإيمان، (الدباغ 1968، ص52) ، (لقبال، 1984، ص90).

خاتمة

يظهر مما تقدم عرضه أن واضع سياسة تأليف الشعوب حديثة العهد بالإسلام كان هو الرسول ﷺ، واتبعها الخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم) من بعده، كما سار على نهجهم الفاتحون المسلمون في الآفاق، منهم قادة الفتح في بلاد المغرب، فكان في مقدمتهم عمرو بن العاص رضي الله عنه، الذي كان صاحب الفضل في تخطيط سياسة لتأليف أهل البلاد من البربر، كانت نبراساً لمن أتى بعده من الفاتحين، ارتكزت على عدم توجيه العمل العسكري ضد سكان البلاد إلا في حالات الضرورة القصوى، وكذا جلبهم للإسلام، من خلال إرسال جرائد الخيل إلى سكان إفريقية لتحسس موقفهم من الفتح قبل الفتح النهائي، وإقامة الصلح معهم، ومنحهم المساواة في الحقوق والواجبات مثل إخوانهم الفاتحين، والتبشير بينهم من خلال رجال أكفاء كعقبة بن نافع، الذي مكث في المنطقة طيلة عقود كاملة داعياً ومرشداً بين البربر البتر، أما من ظلوا على دينهم فقد طبق عليهم ما يمليه الإسلام من أحكام، دون المغالاة معهم، لدفعهم إلى الحلف مع المسلمين، أو على الأقل لضمان حيادهم في صراع المسلمين مع البيزنطيين، وإن كان قادة الفتح الإسلامي الذين أتوا من بعده قد اشتركوا معه في ركائز هذه السياسة، فقد أضافوا لها طرق وأساليب أخرى في سبيل تأليف البربر إلى جانب الإسلام مثلما سبق عرضه.

وعليه يمكن استنتاج وتوضيح ركائز ووسائل سياسة تأليف البربر في النقاط التالية:

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

– توجيه العمل العسكري نحو البيزنطيين لا إلى أهل البلاد.

– وضع هدف للفاتحين وهو كسب ولاء السكان إلى الإسلام، أو على الأقل ضمان حيادهم في صراع المسلمين مع البيزنطيين النصارى.

– إرسال جرائد الخيل إلى النواحي ومحاولة تحسس موقف أهلها من البربر من الفتح، وكسبهم أو ضمان حيادهم قبل الفتح النهائي.

– استغلال سوء العلاقة بين البربر وبين البيزنطيين ومن ثم جلب البربر إلى جانب الإسلام.

– عدم التعرض لسكان المدن في إفريقية وعدم الاعتداء عليهم وعلى أموالهم وأملاكهم.

– تأمين المسالمين وأهل الصلح من سكان البلاد، وإعطائهم حقوقهم وفق ما نصت عليه أحكام الشريعة الإسلامية.

– الحرص على المساواة بين المسلمين الجد من البربر وإخوانهم من الفاتحين في الحقوق والواجبات، مثلما نصت على ذلك أحكام الشريعة الإسلامية.

– الحرص على إبقاء الدعاة والمرشدين في المناطق المفتوحة لدعوة أهاليها إلى الإسلام وتعليمهم شؤون دينهم.

– بناء المساجد لتكون منارة تشع على أهل البلاد بنور الإسلام.

– تشييد المدن والمعاقل العسكرية وسط مضارب البربر، وما لذلك من أثر في احتكاك البربر بإخوانهم الفاتحين وتثبيت الإسلام في أوساطهم.

– تأليف زعماء البربر ومن ثم مشايعيهم وأحلافهم من القبائل والأفخاذ.

– إشراك البربر في المجهود الحربي في فتح بلاد المغرب.

– تعيين عمال من البربر على رأس مناطق بالمغرب، وتكليفهم مسؤولية إدارة المنطقة الواقعة تحت حكمهم، والمساهمة في المد الإسلامي بباقي الآفاق.

أما أهم أبعاد هذه السياسة الحكيمة فقد تمثلت في:

– تحول أهل البلاد إلى الإسلام واستعرابهم وتأثرهم بمظاهر الحضارة الإسلامية.

– كان لها دور كبير في تيسير وتسهيل فتح كثير من المناطق في بلاد المغرب، وخاصة المغربين الأوسط والأقصى، حيث كان للبربر المسلمين الجدد دور هام في ذلك، بعد اعتناقهم للإسلام عن اقتناع، لدرجة أصبحوا يضعون أنفسهم شعلة في سبيل إشاعة أنواره بين ذويهم وفي البلاد، وضد من لم يذعن للإسلام من بني جلدتهم، إذ لا يداهنون في دين الإسلام أحد.

– زوال حكم البيزنطيين النصارى من بلاد المغرب بفضل مؤازرة البربر للمسلمين الفاتحين وتحالفهم معهم، مما أدى إلى ضعف جانب البيزنطيين واختلال صفوفهم، ثم إلى زوال حكمهم من البلاد بصفة نهائية.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

– على أن ميلاد مجتمع مسلم جديد ببلاد المغرب من ضمنه عنصر البربر، قد كان له أثره في فتح بلاد الأندلس فيما بعد.

في الأخير ينوه الباحث إلى الأهمية البالغة لموضوع استراتيجيات الفتح الإسلامي في الآفاق ككل، وفي بلاد المغرب بشكل خاص، إذ لا زالت الكثير من جوانبه تستدعي البحث وإزاحة الستار عنها، فالفتح الإسلامي كما مر بنا من خلال هذه الدراسة، يتضح أنه كان فتحاً يسير وفق استراتيجيات مدروسة ومرسومة، لها ركائزها ومبادئها ووسائلها وأهدافها وأبعادها في البلاد والعباد، ومن ثمة وجب الكشف عنها.

قائمة المراجع:

1. ابن الأثير. **الكامل في التاريخ**، تح أبي الفداء عبد الله القاضي. 1. بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية، 1987.
2. ابن خلدون. **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط خليل شحادة، مر سهيل زكار. 6. بيروت لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
3. ابن عبد الحكم. **فتوح مصر والمغرب**، تح عبد المنعم عامر. 1. مصر: شركة الأمل للطباعة والنشر، دت.
4. ابن عذاري، المركشي. **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح ج س كولان وليفي بروفنسال. 1. المجلد 3. بيروت لبنان: دار الثقافة، 1983.
5. ابن هشام. **السيرة النبوية**، تح عبد السلام تدمري. 3. بيروت–لبنان: دار الكتاب العربي، 1990.
6. أحمد بدر. "هجرة الثقافة من المشرق إلى المغرب في القرن 2هـ/8م،" مجلة دراسات تاريخية، أفريل, 1982، الإصدار 8: 8.
7. إيناس عماد عبد المنعم. "**أبو المهاجر دينار (ت 62هـ/ 681م) وجهوده القتالية في فتح شمال افريقيا والمغرب**."، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، أفريل, 2018، الإصدار 64: 141–167.
8. البكري. **المسالك والممالك**، تح جمال طلبة. 2. بيروت– لبنان: دار الكتب العلمية، 2003.
9. البلاذري. **فتوح البلدان**، تح عبد الله أنيس الطباع. بيروت–لبنان: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1987.
10. حسن النجار. "**الفلاحة والصيد البحري في جزيرة جربة (1939–1918م) من خلال محاضر جلسات المجلس البلدي**." المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، ديسمبر, 2022: 112–113.
11. الحميري. **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح: إحسان عباس. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان، 1984.
12. خليفة بن خياط. **تاريخ، تح أكرم ضياء العمري**. 1. النجف، العراق: مطبعة الآداب، 1967.
13. الدباغ. **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تع أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى التنوخي، تصحيح إبراهيم شبوح. 1. مصر: دار الخانجي، 1968.
14. سعد زغلول عبد الحميد. **تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)**. 1. الإسكندرية: منشأة المعارف، 1993.
15. السلاوي. **كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح جعفر الناصري ومحمد الناصري. 1**. الدار البيضاء، المغرب: دار الكتاب، 1997.
16. صفي الدين عبد المومن بن عبد الحق. **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح علي محمد البجاوي**. 2. بيروت– لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر، 1954.
17. الطاهر أحمد الزاوي. **تاريخ الفتح العربي في ليبيا**. المجلد 4. بيروت– لبنان: دار المدار الإسلامي، 2004.
18. عبد العزيز سالم. **المغرب في العصر الإسلامي**. مصر: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، دت.
19. عبد العزيز سالم. **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة**. لبنان: دار المعارف، دت.
20. المالكي. **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، تح بشير البكوش. 1. المجلد 2. دار الغرب الإسلامي، 1994.
21. محمد بن عميرة. **الفتح الإسلامي لبلاد المغرب في كتابات المؤرخين الفرنسيين**. الجزائر: نشر وتوزيع الدار الوطنية للكتاب، 2014.
22. محمود شيت الخطاب. **قادة فتح المغرب العربي**. 1. المجلد 7. 1984.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

23. المقري. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح إحسان عباس. 1. بيروت– لبنان: دار صادر، 1968.

24. موريس لومبار. **الإسلام في مجده الأول من القرن 2 إلى القرن 5 هـ (8 – 11م)**، تر وتع إسماعيل العربي. المجلد 3. المغرب: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1990.

25. موسى لقبال. **المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم)**. المجلد 3. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

26. مؤنس حسين. **فتح العرب للمغرب**. مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دت.

27. ياقوت الحموي. **معجم البلدان**. 1. بيروت– لبنان: دار صادر، 1977.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)